الاخ ساروفيم ڤكتور (١٨٧٩-١٩٢٢)

من اخوة المدارس المسيحية « الفريز »

بقلم ا. م. ب.

٣

تآليفه

وقد ترك الاخ ساروفيم عدة آمالٍ ورسائل مطبوعة ، ظهر بعضها في مجموعة « بحر الآداب » المنشورة في مصر بعناية الفريز ، منها تسع رسائل ظهرت في الجزء الثالث من المجموعة[1] تدور حول التهاني والتعازي والنصائح والمعاملات التجارية ، وكلها باسلوب سهل المأخذ ظاهر الطلاوة . وظهر في الجزء الرابع من المجموعة[2] قصيدة مؤثرة في تأبين شاب احتضر في زهرة حياته ؛ و ١٤ قطعة من الامالي تتضمن نصائح ومشورات جزيلة الفائدة .

ومن آثار الاخ الفقيد كتاب صلوات عرّب بعضه ووضع اكثره ، وقدّمه « للناشئة الكاثوليكية » بعنوان « نجوى العابد » ؛ طُبع طبعة ثانية في القدس الشريف سنة ١٩٢٧ . وهو يحتوي على كل ما تتوق اليه النفس المتعبدة من صلوات وابتهالات وتأملات يزيد تأثيرها انها ماثلة باسلوب صحيح لطيف .

شعره

لم يكن الفقيد العزيز يُعنى بالشعر ، مع انه نظم كثيرًا ، ولكن في ظروف خاصة ، وعن اضطرار كجواب عن رسالة شعرية أو مساعدة مبتدئ بالنظم وتشجيعه اذا رآه ميّالًا للقريض . وقد كتب الى احد تلامذته : « هل

---

١) بحر الآداب ، تأليف لفيف من الاساتذة (وكالة الفريز - باب سدره ، الاسكندرية) : الجزء الثالث ، طبعة جديدة ، ص ١٧٩-١٩٠ .

٢) بحر الآداب ، ص ٢١١-٢١٢ ؛ ٢٢٥-٢٢٦

لك ان ترثي القريحة بشعرك الشائق» فلما وصله ما جادت به قريحة الشاب، كتب اليه: «لا بأس بما نظمته. لكن احذر من الاستسلام لشيطان الشعر، فالجداجد كثيرة في بلادنا ..» وكتب اليه ايضاً: «لا بأس بما نظمت ابتداء ولكن لا تنسَ ان قرض الشعر أُلمية لا يسوغ للعاقل الالتفات اليها الا نادراً.»

وامتاز شعر الاخ ساروفيم بالوصف البليغ الغير المتصنع. يظهر ذلك في موشّح اسماه «المجوس»، يخال لقارئه انه يتبع المجوس في سيرهم وراء النجم العجيب واشرافهم على اورشليم ودخولهم المدينة واضطراب اهلها ولاسيما هيرودوس السفّاح. ومن صفاته رقة العاطفة وصدق الشعور وطبيعة الحنين البارزة في هذه القصيدة التي ننشرها مثالاً من شعره، وهي آخر ما كتب من مولان (فرنسة) قبل وفاته، قال:

حنين منفي

«جادت القريحةُ القريحةُ» ببضعة ابياتٍ، أملاها قلب هاجته عواطف الحب والشوق، للاحباب والاهل والوطن:

يا نسيمَ الصبح، سرْ نحو الشآمْ، ... وزُرِ الاحبابَ، وأقرئهم سلامْ.
وصفِ الوجدَ، وما عانيتُهُ ... يومَ منفايَ، وأسهب في الكلامْ.
قاسني الدهرُ بأنواع البلى. ... سهمُهُ جازَ فؤادي والعظامْ؛
نقضَ العهدَ الذي أبرمتُهُ؛ ... خانني غدراً، ولم يرعَ ذمامْ.
كنتُ بالامسِ، مع الاحبابِ في ... رغدِ عيشٍ وصفاءٍ ووئامْ.
وانا اليومَ بعيدٌ عنهمُ ... ولنا، هيهات! لا يُرجى انضمامْ.

يا رعى اللهُ أُويقاتٍ مضتْ ... بين اخوانٍ واحبابٍ كرامْ!
لم أذُق من بعدهم أُنساً، وقد ... ماورَت قلبي لِيأتٌ عظامْ.
كلّما مرّ ببالي ذكرهم، ... سال دمعي كسحابِ الغمامْ.
ودّعت نفسي المنى، مُذ ودّعوا. ... فرقتي عنهم، وتفريقي حرامْ!

يا ربوعَ الشامِ، لا زال الهنا ... شاملاً اهليكِ طُرّاً، للدوامْ،
عنكِ قد بتُّ اضطراراً، لا رضىً. ... ذقتُ يومَ البينِ، كاساتِ الحِمامْ.
لسواكِ القلبُ لم يعرفْ هوًى؛ ... وهوى الاوطانِ ما فيه مَلامْ.

لن ترالي في فؤادي ابدًا ؛ في في ذكرك ، أشهى من مُدام ؛
نسماتٌ منكِ تحيي مهجتي ؛ مائك العذبُ شفاءٌ للسقام ؛

يا أُهيلَ الشام ، لا تنسوا فتى قد غدا ، من شوقهِ ، فوق ضِرام .
اذكروا المنفيَّ ، في دعواتكم ، إذ تصلّون الى ربِّ الانام ،
اذ امام العرش ، في قربانه ، تُصعدون النفس حبًّا واحترام .
اذكروا المنفيَّ في اسماركم ، حيثما يجمعكم أُنس المقام ؛
اذكروهُ ، ان ذكرًا منكمُ بلسمٌ من قلبهِ يشفي الكِلام .
ذكركم لي سلوةٌ في يقظتي ؛ طيفكم يؤنسني وقت المنام .
كلَّما هبَّت إلينا ريحُكم ، حملَتْ شوقي اليكم والسلام .

ليتَ شعري ! هل إساري صائر لفكاكي ، وقيودي لانفصام ؟
هل الى لبنان لي من عودة ، فترى عيناي هاتيك الاكام ؟
هل يئوب الدهرُ يومًا ، وارى مع مَن فارقتُ ، للشمل التئام ؟
ان يشأ يجمعْ الهي شملنا ، وبرآكم يبلغني المُرام ؛
واذا بالبعد يقضي ابدًا ، فعليكم . وعلى الشام السلام .

تاريخ الآداب العربية

اراد الاخ ساروفيم ان يُدخل شيئاً جديدًا في التعليم العربي، على عهد ادارته في القدس الشريف ، فاخذ يضع فصولًا مختصرة في الادب العربي ، ويلقيها على التلامذة في حين لم تكن مدرسة تعتني بتاريخ الآداب . وما لبث خبر هذه البدعة ، اي تقريب تاريخ الادب العربي من افهام الطلّاب ، ان انتشر في القدس . فتوارد الاساتذة من مدارس عديدة يسألون الاخ ان يسمح لهم بنسخ شيء من فصوله وان كانت في الغالب تتألف لا لحمة بينها . ثم رغبوا اليه ان يلقي سلسلة محاضرات تكون انموذجاً للاساتذة في التدريس ، ففعل .

على انه لم يكن يفكر اولًا بان يضع كتاب تاريخ اداب ، انما كانت غايته افادة تلامذته ، بكتابة بعض مقالات عن الادب والطوم والفنون عند العرب . ولكن افتقار لغتنا حينذاك الى مثل هذه الكتب المدرسية ، دفع كثيرين فحثّوا الاخ على مواصلة العمل ، وترتيب ما سبق له فكتبه ، وكان

ذلك سنة ١٩٠٦ . فشمّر ، رحمه الله ، عن ساعد الجد ، وشرع في اعادة النظر في المقالات الافتتاحية لكل عصر، تلك التي جعلها كمحور يدور عليه فنّ تاريخ الآداب ، كما صرّح بذلك هو نفسه في رسالة لاحد تلامذته واصدقائه في ٤ تشرين الثاني ١٩١٤ ، اذ سأله هذا عن كيفية استعمال الكتاب ، فقال ، رحمه الله ، ذاكرًا محتويات كتابه حسب اهميتها :

« المحور الذي يدور عليه فنّ تاريخ الاداب ، انما هو المقالات الانتقادية . وبناء عليه يحسن ان يوجّه المعلم التفات تلامذته اليها ، بمزل عن التراجم والمنتخبات . غير ان بين هذه المقالات تفاوتاً في الاهمية . فحسب الطالب من المقالة التمهيدية ، التي في صدر الكتاب ، ان يقرأها بتروّ ، دون ان يضيع بها وقتاً . واذا وصل الى « اللغة في الجاهلية» زاد في التروّي والتمعُّن ، بحيث يجيب اجوبة صريحة على الاسئلة التي يهيّؤها ويلقيها عليه المعلم . وهذه الاسئلة من الضرورة بمكان ، وبدونها يُخشى على المعلم ان يضيع وقت الطالب . وهكذا يجري في كل فصل من الفصول الخاصة باللغة . واما الفصول الثانوية : كالمؤرخين ، والجغرافيين ، والفقهاء ، والاطباء . . . فيُترك الطالب حرًّا في مطالعتها ، ان شاء ، للفائدة والتفكهة

« وبعبارة جامعة ، يتحتم على كل تلميذ معرفة المقالات الانتقادية معرفة كافية تمكنه من الجواب على اسئلة استاذه . ويطلب ممن رُزقوا ذاكرة حسنة ان يعرفوا عددًا من الشعراء والادباء الذين عاشوا في المدة المعينة . وان استطاع الطالب ذكر لمعة من ترجمتهم ، ونبذة من اقوالهم ، فذلك غاية ما يجوز ان يتقاضاه المعلم . ومهما يكن من مقدرة الدارس ، فلا بدّ ان يتجنب مدرّسه طلب حرفية المقالات ، والّا اصبح درس التاريخ عناء وشقاء وخسارة وقت .

« ثم ان « فهرس المواد » هو بمثابة جدول للكتاب . فمن مطالعته ، يرى التلميذ بلمحة تقسيم تاريخ الاداب الى اطوار مختلفة ، باختلاف احوال اللغة .»

فترى انه عُني بوضع المقالات اكثر من التراجم ، وجعلها الكل في الكل في كتاب دعاه في رسالة اخرى، سنة ١٩١٢، «ثمرة تعب اربع سنوات قضيتها في

البحث والتنقيب والتحقيق ، في مؤلفات عديدة ، وذلك ما سبب تطفي بهذا الكتاب الذي هو زبدة مباحثي في اللغة وآدابها .»

ومتى عرفنا ان كتاب الاخ ساروفيم كان اول كتاب مدرسي شامل ، لم يتمكن فيه المؤلف ، رحمه الله ، من الانتفاع بالتطور الذي طرأ على فنّ تاريخ الآداب منذ ٢٥ سنة ، زال الداعي الى تنديد بعضهم فيه ، ومطاتبتهم اياه لبعض الغلوّ في المديح المصدّر به تراجم بعض الشعراء والعلماء . فلو انتقل هذا البعض الى زمن المؤلف ، لأدركوا أنه لطف كثيرًا مما كان شائعاً اذ ذاك ، وشقّ طريقاً لم يكن مطروقاً بعد .

فضلًا عن ان المؤلف لم يكتب ترجمة الّا ذيّلها او صدّرها ، أو أضاف الى حادث ذُكر فيها ، رأيه والوجه الأصوب الذي يراه في الحادث او القول المذكور .

أما في تبويب الكتاب ، فاتّبع الاخ ساروفيم سياق الحوادث التاريخية ، لثلاث غايات : الاولى : ليتعلم الطالب تاريخ العرب ويُلمّ ببعض الحوادث والوقائع المشهورة ولا يظلّ ، في جهل تاريخ الجزيرة وسورية والاندلس والمغرب العربي ، على الحالة المعيبة التي كان ولا يزال كثيرون يرتعون فيها . والغاية الثانية : تدريب الطلّاب على فن الانتقاد ، بما يراه في المقالات ؛ ثم تمويده الانشاء المرسل وهي الغاية الثالثة من اتقان وضع الكتاب .

وان أضفنا الى ذلك ان المؤلف كان بعيدًا عن مصر ، عندما طُبع كتابه سنة ١٩١٤ للمرّة الاولى ، وانه كان جاور ربّه ، عند ما طبع الطبعة الثانية ، زال عجب من يرون في كتاب الاخ ساروفيم عيوباً كان يمكن تلافيها واصلاحها : كالاغلاط في ضبط اسماء الاعلام ، وتحريف بعض بيوت الشعر ، وعدم الاستثبات الكافي في تواريخ المترجمين ، وضرورة تمحيص بعض الحقائق التاريخية . . .

هذا ، وتتمة لازالة الوهم ورفع الذم عن المؤلف ، رحمة الله عليه ، أذكر القارئ ان الاخ ساروفيم بُلي منذ السنة ١٩٠٦ بداء الصدر الوبيل ، وكثيرًا ما كان ينقطع عن الكتابة والتعليم مدةً ، لعارض هائل من علته القتّالة .

(لهُ صلة)